

أثر الاستيطان الفرنسي في الجزائر

الجانب الديني نموذجا

أ. د/ عليوان اسعيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

يُعَدُّ الاستعمار الفرنسي للجزائر استعماراً استيطانياً على خلاف استعمار فرنسا لتونس والمغرب، هذه القضية موضع اتفاق بين الباحثين والمؤرخين، والجزائريين والفرنسيين على السواء؛ مما يجعلها حقيقة لا جدال فيها، ولَمَّا كان موضوعُ بحثنا يتعلَّقُ بأثر الاستيطان الفرنسي في الجانب الديني حيث إنَّ الاستيطان يُؤثِّرُ في مُختلف الجوانب، ويتَّخذ للتمكين كلِّ الوسائل، فإنَّ ما يهْمُنَا هُنا هو الأثرُ الدينيُّ، وبذلك يمكن أن نَصُوغَ الإشكالية كما يأتي:

الاستيطانُ عبارة عن استيلاء شعب على بلد شعب آخر عُنوة، وتبييت النية على الاستقرار بها أبدياً، وأخذ كلِّ خيرات ذلك البلد. ولما كان هذا من الصُّعوبة بمكان فإنَّ الاستعمار يَشْرَعُ بمجرد الاستيلاء على إقامة دعائم هذا الاستقرار. ولما كان المشروع يجد مقاومة السُّكان الأصليين، وتتطوَّق مقاومتهم من ثقافتهم، وكان أساس ثقافة الشعب الجزائري عِشِيَّة الاحتلال الفرنسي هو الإسلام؛ فهل من الطَّبِيعِيَّ أن يجهل الاستعمار هذه الحقيقة فلا يعمل على إزالة أكبر عائق أمام أطماعه؟ وإذا أدرك فما عُدَّتْه في ذلك؟ وما هي النَّتائِج التي آل إليها الأمر؟

لِكِي نَحُلَّ هذه الإشكالية نَنطَلِقُ مما قبل الاستعمار بقليل مُشيرين إلى العدوان الغربي ثُمَّ الفرنسيِّ مُبرزين دور الفاتيكانيَّة في ذلك، ثُمَّ نُشير إلى طبيعة تركيبة الحملة الفرنسيَّة على الجزائر في 27 جوان 1827م، وماذا فعل الجيشُ

الاستيطاني بعد الاحتلال، وكيف ساهم المعمرون في نشر المسيحية:

♦ ما قبل الاستعمار الفرنسي للجزائر، أو دور الدين المسيحي في استعمار الجزائر:

لقد كان الصراع على أشده بين الجزائر والعالم المسيحي الغربي، والجزائر بمساعدة العثمانيين هي التي أوقفت الرّحف الإسباني على بلدان المغرب العربي والعالم الإسلامي. وأصبحت المدافع الأكبر عن الإسلام، فتعرضت لكثير من الحملات الصليبية الغربية بسعي الفاتيكان وتخطيطه باعتبارها حاملة راية الجهاد، واستمرت تلك الحملات إلى غاية الحملة الفرنسية على الجزائر ابتداء من 27 جوان 1827م، وهي الحملة التي شجعتها البابوية تشجيعاً حثيثاً⁽¹⁾ بعد أن شاركت في التخطيط لها، إلى حد أن تصرف قنصل فرنسا دوفال (Duval) مع الداي حسين كان بإشارة من الفاتيكان⁽²⁾ الذي اعتبر استعمار فرنسا للجزائر عملاً مقدساً، وكان وراء وزير الشؤون الدينية الفرنسية الأسقف فريسنوس (Fresnos) الذي أثار على قرار شارل 10 لصالح غزو الجزائر⁽³⁾ الذي كان العامل الديني فيه من أهم أسبابه، وهو ما جعل البابا بيوس 8 'Pious8' يتكرم على الملك لويس فيليب (Luis phillyp) بمنحه لقب "الملك الشديد المسيحية" بسبب اعتماده على الدين وتدعيمه له بالجزائر إلى حد قوله بمجلس وزرائه «يجب أن يكون هناك حسن تدبير في العمل على تنصير العرب الذين لا يمكن أن يكونوا فرنسيين إلا إذا تنصروا»⁽⁵⁾. وهذا ما كان يرغب فيه الفاتيكان الذي كان على يقين من أن استعمار فرنسا للجزائر هو استرجاع لمجد روما بعد 13 قرناً من الفتح الإسلامي⁽⁶⁾، ويتأكد هذا من خلال أهداف الحملة الفرنسية المتمثلة في شيئين جوهريين مترابطين هما:

(1) الرغبة في تأسيس إمبراطورية استعمارية قريبة من فرنسا لتسهيل السيطرة عليها.

(2) تلبية رغبة الكنيسة بشن حروب صليبية جديدة على بلاد الإسلام التي أخذ الضعف ينخر جسمها⁽⁷⁾، وإعادة إحياء الكنيسة الإفريقية⁽⁸⁾.

وقد بدأ ملوك فرنسا يخططون لهذا - على الأقل - منذ 1270م، ولكن قوة الجزائر حالت دون ذلك، وما إن ضعفت حتى انقضوا عليها لتحقيق الهدفين

السَّابِقِينَ باعترافهم بذلك صراحةً في وثيقةٍ رسميةٍ مخصَّصةٍ لجيش العدوان عام 1830م، صادرةً بأمر وزير الحرب الفرنسي ومطبوعة بطابع الملك، ومُستقاة من تقرير الرَّائد العسكري المهندس بوتان (Bouton) الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر عام 1808م بغرض الإعداد لاحتلالها.

ومما ورد في تلك الوثيقة:

«وما الحاجة إلى تخصيص الشكاوى والمظالم التي كانت لنا في المدَّة الأخيرة، بينما مُجرَّد وجود الجزائر ذاتها مظلمة وشكوى كافية، ومُبرَّر عادل لتخريب هذا الوكر للقرصان وقطاع البحر، فمنذ مدَّة طويلة، والفلسفة والسياسة والإنسانية والدين: كلُّ هذا يتطلب مِنَّا إبادَة دولة تُمثِّل جميع مفاهيمها [أي الإسلام] خرقاً دائماً لكلِّ مبدأ أخلاقيٍّ، وتُشكِّل مساساً بكلِّ حضارة⁽⁹⁾، ومن هنا فإنَّ السَّبب الحقيقي لعدوان 1827م هو النيةُ المبيَّنة منذ قُرُون بخصوص الدين والحضارة: أي الاستيطان والتَّصغير؛ وهما السَّببان بالضبط اللذان دفعا بِجِدِّ شارل 10، لويس 9 (القديس لويس) إلى مُهاجمة بلدان المغرب بدءاً بتونس سنة 1270م حيث مات بالوباء⁽¹⁰⁾، وهما السَّببان كذلك اللذان برَّرَ بهما وزيرُ الحربيَّة الفرنسي كليمون تونير (Clement Tonnerre) في التَّقرير الذي قدَّمه لشارل 10 يوم 14 أكتوبر 1827م: الفائدةُ من استعمار الجزائر: تَمدينُ الأهالي وجعلهم مسيحيين⁽¹¹⁾؛ وهذا ما أدَّى بِشارل العاشر إلى جمع كلِّ أساقفة فرنسا ليطلب منهم إقامة صلواتٍ خاصَّة بهذا الغرض في كلِّ الكنائس لدعوة الرِّب بحماية الرِّاية ونصرهم⁽¹²⁾.

♦ إدراك العلاقة بين التَّبشير والاستيطان:

من السُّهولة بمكان إدراكُ العلاقة بين التَّبشير والاستيطان من خلال تركيبة الحملة، ومن خلال التَّصريحات، والأعمال الأساسية التي قام بها جيش العدوان بعد الاحتلال، والمخطَّط الذي أعدَّه، والدور الذي لعبه المستوطنون في التَّصغير.

تركيبة الحملة: تركيبة الحملة شملت كل الهيئة الإيديولوجية؛ من العسكري إلى القسيس، إلى رجل الفكر والاستشراق، إلى المعمّر والرّسام إلخ... كلهم يتعاونون.

وقد خُصّص القسيس كولان (Colon) ليكون رئيساً للمرشدين العسكريين⁽¹³⁾، وقائداً روحياً للحملة، إضافة لـ 15 قسيساً، أحدهم سوري الجنسية جُعل مترجماً في الإدارة العامة⁽¹⁴⁾، ولتتصوّر أهمية الدافع الديني من خلال جيش رئيس مرشديه العسكريين قسيس، ويؤطره 16 قسيساً.

♦ أعمال وتصريحات جيش العدوان ومخططهم:

لقد أقام الفرنسيون في أوّل أحد بعد احتلال مدينة الجزائر احتفالاً دينياً ضخماً في السّاحة الرئيسيّة للقصة يتصدّره بورمون، وبين أحد الفرنسيين جو الاحتفال ولماذائيّة كونه في القصة فقال: «إنّ الاحتفال الضخم جرى في القصة التي بناها أبناء محمّد لمواجهة أبناء عيسى، وقد رتلوا آيات الإنجيل بأصوات عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت ميّة، والتي تغطي كلّ الجدران»⁽¹⁵⁾.

وهكذا فإنّ الفرنسيين فهموا أنّ سقوط الجزائر يعني سقوط قلعة إسلاميّة، وعودة المسيحيّة إلى ديارها، ولما كان الاستعمار الفرنسي استعماراً استيطانياً، والاستيطان الفرنسي في الجزائر لم يقيم على تأسيس مستوطنة فرنسيّة مستقلة، بل يقوم على ضمّ الجزائر إلى فرنسا واعتبارها جزءاً لا يتجزأ منها، فنتوصل هنا إلى ما فعله هذا الاستيطان في المجال الدينيّ.

♦ مجهودات الاستيطان في المجال الدينيّ:

ننتقل هنا من الإشارة إلى أنّ الاستعمار الفرنسي أتى إلى الجزائر ليحلّ شعبه محلّ السكّان الأصليين بأخذ أرضهم، وليحلّ دينه وثقافته محلّ الدين والثقافة الإسلاميين؛ وهذا لن يتحقّق إلّا على عدّة جبهات؛ منها الجبهة الدينيّة، ولا نقصد هنا بالجانب الدينيّ تنصير كلّ الأهالي، ليس لأنّ هذا مستحيل فحسب؛ بل لأنّ الفرنسيين أنفسهم

كانوا اتّجاهاتٍ شتّى من مُتديّنين وملاحدة، ولكنّهم اتّفقوا جميعاً على أهميّة العامل الدينيّ في تثبيت الاستيطان، ولا أدلّ على هذا من أنّ فرنسا كانت بتأثير الثورة الفرنسيّة كافرة بالمسيحيّة هناك، ولكنّها مُشجّعة لها في الجزائر، وتمثّلت مجهوداتهم فيما يأتي:

1. تسميح العمران:

ويُعدّ هذا من أثر الاستيطان؛ وذلك بمحو الطابع الإسلاميّ المميّز للمدن الجزائريّة، وصبغها بالصبغة المسيحيّة، ومن ذلك:

- اختيارهم لجامع كتشاوة - بعد احتلال مدينة الجزائر مباشرة - لتحويله إلى كاتدرائيّة؛ لأنّه كان أحسن المساجد موقعاً وبناءً، كما حوّلوا بعد احتلال قسنطينة مسجد الباي إلى كاتدرائيّة؛ وذلك إضافة إلى طابع جماله الخلّاب، فإنّ ذلك التحوّل يُعدّ رمزا مُهمّاً في استيلاء الصليبيّ على دولة الإسلام؛ لأنّ الباي يرمز إلى الدّولة، وجعل مسجده كاتدرائيّة له دلّالته في ذلك:

أمّا المدن التي بناها الفرنسيّون أو وسّعوها، فإنّهم كانوا يُخطّطونها تخطيطاً مسيحياً؛ وذلك باختيار مركز المدينة لبناء كنيسة في وسطه، ويبنى سوق مُغطّى بجانبها، وحديقة جميلة أمامها للتّزّه، وبنية مُلائمة للرهبان والراهبات للقيام بشؤون الكنيسة واصطياد الجزائريّين بما يُغرّونهم به من بعض المساعدات، كما يُختار مكانٌ جميل لتخطيط مقبرة تخطيطاً جميلاً، وتغرس بالأشجار، وقد تخطّط بجانب مقبرة المسلمين المبعثرة القبور البئيسة كبؤس أهلها المستعمرين.

وعندما تُوضع الكنيسة في مركز المدينة فإنّ صداها يصل إلى كلّ سُكّان المدينة من خلال دقّات ناقوسها المزعج، وتردّد السكّان على السّوق وتقلّهم وسفرهم، كما تُبنى هذه الكنيسة بناءً شاهقاً ومُتّرفاً، ويتفنّن في طابعها الجماليّ المهندسون آملين جلب أفئدة النّاس بذلك.

- تأسيس أسقفية الجزائر في سنة 1838م؛ وذلك «تتويجاً للفكر المسيحيّ في قلب الإسلام» حسب قول بوجولا Poujoulat⁽¹⁶⁾ الذي اعتبر ذلك "حدث العصر"؛

لأنه اتصلت به السلسلة الذهبية التي صنعها سيبيريان⁽¹⁷⁾ وأغوسطين⁽¹⁸⁾ والتي انقطعت في نظره نتيجة 14 قرناً من الوحشية.

وإضافة لهذا فقد أخذوا في الحفريات حول بعض المساجد - مثلما يفعل الآن اليهود بالمسجد الأقصى - كالجوامع الأعظم بالعاصمة زاعمين أنها بُنيت على أنقاض هياكل دينية مسيحية⁽¹⁹⁾، ومن أغراض هذه العمليات إعطاء المنطقة طابعاً مسيحياً؛ وبهذا تتشكل المدينة أو المستوطنة كما يأتي:

- مباني جميلة يسكنها الفرنسيون تتخللها طرقات مرصوفة ومعبدة تحفها الأشجار، ومقرات حكومية مبنية بنمط هندسي جميل وبارزة في المناطق الاستراتيجية في قلب المدينة، وكنيسة تتوسط مركز المدينة يحيط بها فضاء من كل جانب، وبالقرب منها سوق مغطى ومقابلها حديقة جميلة للتشّرة، وفي طرف المدينة وفي مكان جميل نخطط المقبرة المسيحية بقبور مرصوفة مشكلة صلباناً تتخللها أشجار كثيفة، وفي إطار كل هذا نجد المبشرين على قدم وساق يعملون على اصطلياد فرائسهم مستغلين بؤسهم وأمراضهم الناتجة عن الاستعمار الذي جرّدهم من كل شيء ليقدّمه للمعمّرين الجدد.

2. تمسيح المؤسسات الدينية أو تدميرها:

أخذ جيش الاحتلال من أول وهلة في العمل على تمسيح المؤسسات الدينية، وتدمير ما لم يُمسح أو تحويله إلى أغراض أخرى، ومن تلك المؤسسات:

- المساجد والزوايا والمدارس: يجب أن نذكر هنا بأن مدينة الجزائر وحدها كان بها في 1830م 122 مسجداً، فلم يبق منها في سنة 1899م سوى 5 مساجد. والأخرى كلها هدمت أو صودرت أو حوّلت إلى كنائس، وقد عبّر عن هاته المأساة الحاكم الديني بيشو (Pichon) في تقريره إلى رئيس الحكومة الفرنسية، ومما ورد فيه: «إنني بمجرد وصولي... سمعت أن اللجنة المكلفة بالمحلات العسكرية لم تهتم بشيء مثل اهتمامها بالاستيلاء على بقية المساجد... فهم يريدون القضاء على بقية المساجد وعلى الدين الإسلامي⁽²⁰⁾»، وما يجب الإشارة إليه أن القضاء على المساجد لم يكن يهدف إلى القضاء على بيوت العبادة فحسب، بل يهدف أيضاً إلى

القضاء على مراكز العلم والتوجيه العام، وخزائن الكتب والأحباس التي كان التعليم يمول منها؛ وبذلك فإن القضاء على المساجد يعني القضاء على القاعدة الثقافية للشعب الجزائري لضرب الإسلام في الصميم.

وإذا كان رجال الحملة هم الذين فعلوا هذا فهذا يعني بوضوح أن بوادر التصيير الأولى في الجزائر هم الذين أسسوها، ولا أدل على هذا من أن دورفيكو⁽²¹⁾ - قائد جيش الاحتلال - هو الذي أسس لجنة اختيار أحسن مسجد لتحويله إلى كنيسة، وعندما اختارت جامع كتشاوة، فإن جيشه هو الذي احتل الجامع من معتصميه وقتل المتظاهرين المحتجين على ذلك، وسلاح هندسته هو الذي حوله إلى كنيسة⁽²²⁾، وما وقع للمساجد وقع للمدارس والزوايا بحجة تحريضها على الثورة⁽²³⁾، كما قتل العلماء ونكل بهم مثل ابن العنابي الذي اتهمه الماريشال دوبرومون بمحاولة التمرد والدعوة إلى الثورة فجرد من أملاكه ونفي⁽²⁴⁾ وأبطلت المواسم الإسلامية، وأرغم الأئمة على إلقاء خطب الجمعة باسم الملك الفرنسي⁽²⁵⁾؛ كل هذا بغرض القضاء على الطابع الإسلامي للجزائر وتعويضه بالمسيحية⁽²⁶⁾، ولما كان كل هذا قد تم لا من قبل رجال الدين بل من قبل النواة الأولى للاستيطان أدركنا أثر الاستيطان في المجال الديني.

- مصادرة الأوقاف والأموال الأخرى: كانت الأملاك في الجزائر أربعة أصناف: أملاك الدولة، وأملاك بيت المال، والأملاك الخاصة، وأملاك الأوقاف التي كانت أضخم وأخطر الأملاك، صودرت الأملاك السابقة من طرف كلوزيل بقرارين مؤرخين في: 10 جوان و8 سبتمبر 1831م⁽²⁷⁾، ومن أغراض ذلك زيادة آلام الناس ونشر الجريمة بينهم⁽²⁸⁾؛ ليصبحوا فريسة سهلة للمبشرين؛ ذلك أن رجل الاستعمار يجرد الناس مما يملكون ليأتي المبشر فيستغل ذلك في تصيرهم، وإلا كيف نفسر تجريد الجزائريين من أملاكهم ومنحها للأوروبيين - غير الفرنسيين - بسخاء؟ والسبب أنهم نصارى والجزائريون مسلمون⁽²⁹⁾.

ويمكننا القول بأن مصادرة كل الأملاك السابقة أدت إلى نتائج خطيرة؛ منها: تحطيم اقتصاد البلاد وتحويله من الحبوب والغلال إلى الخمر، وتحويل السكان من ملاك أغنياء إلى أجراء فقراء مما أدى إلى الفقر والأمراض والآفات الاجتماعية

التي هي مصائد المبشرين يرتاعون فيها لتتصير السُّكَّان؛ ذلك أنَّ القضاء على الاقتصاد يعني القضاء على الأساس المادي للإسلام وإضعافه في النفوس.

نتوصل مما سبق إلى أنَّ تحويل المساجد إلى كنائس وتهديم باقيها، ومصادرة الأوقاف مَسَّ الديانة الإسلامية في الصَّميم⁽³⁰⁾ قام به رجال النّواة الأولى للاستيطان لا رجال الدين؛ وهو ما يبيِّن أثر الاستيطان في المجال الديني.

♦ القضاء على التعليم العربي الإسلامي ونهج سياسة الفرنسة:

ومن مبررات ذلك:

- جعلُ الشعب ينقاد له عبر التربية⁽³¹⁾.
- إزالة القضاء الإسلامي وتعويضه بالفرنسي تدريجياً؛ وذلك تمهيداً للإدماج باعتبار الجزائر إقليماً فرنسياً، والدمج؛ يعني دمج الأرض وتدجين الشعب. هذه الممارسة تُعدُّ نوعاً من الارتداد التدريجي الإجباري عن الإسلام⁽³²⁾، وإلا لماذا لم ينفذ هذا على محاكم اليهود⁽³³⁾.
- بثُّ النزعة العنصرية وسط السُّكَّان: وهذه القضية من أهمِّ اهتمامات المبشرين.
- اتِّباع سياسة التتصير المباشر: وجد الفرنسيون أنَّ العائق الأساسي أمام استعمارهم الجزائر واستيطانهم بها هو الدين الإسلامي الذي وحد الجزائريين وجعلهم أمة واحدة، فاتبعوا سياسة التتصير لتحطيمه، وقد بين لوفيبو - سكرتير المارشال بيجو - في تصريح له سنة 1838م جدوى سياسة التتصير في خدمة الاستعمار، وتثبيت أقدام الفرنسيين بالجزائر (الاستيطان) بقوله: «إنَّ العرب لا يقبلون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين»⁽³⁴⁾، ومن الأمثلة الكثيرة على هذا:

- تأسيس أسقفية الجزائر كما ذكرنا قبلاً.

- أمرت الحكومة الفرنسية في عهد كلوزيل بأن يعتنق المسلمون النصرانية قسراً، وقد حمل هذا الأمر إلى الجزائر البريد الفرنسي الصادر بتاريخ 20 جوان 1833م ونصه: «إنَّ الذي لن يُفاجأ به الجمهور، هو أنَّ رئيس الوزراء الحقيقي منذ

ثورة جويلية وإلى عهد قريب جداً، كان قد كتب إلى المقتصد المدني في الجزائر يُوصيه بتمسيح الإيالة⁽³⁵⁾، وهذا يعني أن مشروع تمسيح الجزائر وجد في أذهان المسؤولين الفرنسيين على أعلى مستوى، وليس في أذهان رجال الكنيسة وحدهم.

- كلوزيل هو أول من فكر في أخذ الأطفال الجزائريين إلى فرنسا لتعليمهم الفرنسية وتنصيرهم⁽³⁶⁾.

ولقد بين الغرض التنصيري من الاستيطان الجنرال دوبرمون⁽³⁷⁾ عندما خاطب جنوده بعد استيلائه على مدينة الجزائر قائلاً: «لقد جدّتم عهد الصليبيين»⁽³⁸⁾.

كل ما سبق يبين الأثر الديني للاستيطان، والحق الصليبي عند الساسة الفرنسيين الذي بلغ حدّ التنصير القسري - رغم أنوف الجزائريين - ، ومن ذلك تنصير عائشة بنت محمد في سنة 1834م التي هزّت المجتمع الجزائري، وأدّت إلى استقالة المفتي والقاضي احتجاجاً، وقادت إلى مظاهرات شعبية ومحاكمات، ولكن المستعمرين استعملوا كل وسائل التّحدي لإبقاء المرأة على النّصرانية، ثمّ هربوها إلى فرنسا، وذلك بالتّسيق التّام بين كل من رجال الدين والجيش والسياسة⁽³⁹⁾.

وأحسن مثال لأثر الاستيطان في الجانب الديني، وإبراز العلاقة بين الاستيطان والتّبشير في نظرنا هو:

أوغسطين دوفيلار⁽⁴⁰⁾: الذي كان أول معمر بالجزائر، وكانت أخته إميلي دوفيلار أول مبشرة بالجزائر، فكان هذا الرجل وأخته من أكبر وسائل الرّبط بين الاستيطان والتّبشير في الجزائر، وقد أتى أوغسطين يوم 12 جانفي في سنة 1832م ليكون أول معمر كبير يحلّ بها ويشجّع الحركة الاستيطانية التي دعا إليها كلوزيل، فاشترى أراضٍ كثيرة وأنشأ مركزاً طبياً في مارس 1835م، وأيّده في مشروعه الحاكم العام الكونت درلون Dérion؛ وذلك لأنّهما أدركا ما للأعمال الخيرية من دور فعّال في نشر المسيحية وتقبّل الاستعمار، ولكي يجمع الأموال اللازمة لمثل هذه الأعمال ذهب إلى باريس، ووجّه نداءً إلى

السُّكَّانُ فكان أولُ الملبيين الملكَ لويس فيليب وزوجته اللذين تبرَّعا بمبلغ 1500 فرنك لفائدة المرضى.

ولما كان المرضى في حاجة إلى من يعالجهم فقد اختار أخته إميلي دوفيلالار لذلك، فاستحسن ذلك المجلس البلدي للجزائر الذي كان أحد أعضائه، وبهذا حلت أخته بالجزائر يوم 10 أوت 1835م مع مجموعة من الرأهبات، وحدث أن انتشر داء الكوليرا - بسبب ما حلَّ بالسُّكَّان من ويلات ومجاعات - فبقيت إميلي في المستشفى المدني بالجزائر، وأنفقت حوالي 20 ألف ف شراء السُّكَّر والليمون للتخفيف عن المرضى، فأعجب بها كلوزيل ووعداها بالمساعدة، فاستمرت في نشر رسالتها التبشيرية، ووسيلتها التطبيب والخدمات الخيرية، فأعجب بها قنصل الفاتيكان بالجزائر فكَاتَب أسقف مدينة فاياك في أكتوبر 1835م يُخبره عن ارتياحه لهذا النشاط، كما قدر أعمالها الماريشال بيجو Bugeaud؛ لأنها سهَّلت الاتصال بين الوطن وبين الأهالي؛ لأنَّ المبشرين في نظره يعملون وبجدية لنجاح رسالته⁽⁴¹⁾، وبذلك فقد دُعِمت هذه المبشرة تدعيما هائلا فرأت أن تتخذ قسيسا مُرشدا لفرقتها (فرقة القديس يوسف)، وكان هذا القسيس هو الأب فرانسوا بورغاد F. Bourgade⁽⁴²⁾ (1806م - 1866م) الذي سيلعب دورا خطيرا في التمكن للاستعمار الفرنسي والتتصير لا يقل عن دور لافيجري إن لم يكن أخطر منه، فاستقدمته إلى الجزائر في سنة 1838م، فما أن وصل حتَّى فتح مركزا خيرا جديدا بمدينة بوفاريك، وسلَّمه المارشال فالي (Valée) مسجدا صغيرا تابعا لمستشفى الداي ليقم فيه تعبيراً عن تقديره له⁽⁴³⁾، وقد قام هذا القسيس بدور خطير في كل من الجزائر ثم تونس التي وصل إليها في 1840م بحيث يُعدُّ من الممهدين للاستعمار الفرنسي بها، وهكذا تبدو العلاقة جلية بين الاستيطان والتتصير.

الخاتمة:

ركّزنا في هذه المداخلة على الجانب الذي قام به في أساسه رجال الجيش والسياسة، ولم نُشر إلى مجهودات رجال الكنيسة؛ لأنَّ هؤلاء يجب أن يُخصَّص لهم موضوع خاص بهم من جهة؛ ولأنَّ غرضنا إبراز أثر الاستيطان في الجانب

الديني، ومع أن رجال الكنيسة جزء من الحركة الاستيطانية إلا أننا أردنا إبراز غيرهم لتظهر فرنسا الصليبية على حقيقتها.

- ما قام به الرجال السابقون من رجال الجيش والسياسة والمعمرين الفرنسيين لا يعني بالضرورة تدينهم، بل يعكس حضارتهم، وما يُقال عنهم يُقال أيضا عن رجال الكنيسة حيث لا يُستغرب إيجاد رجل كنيسة ماسوني أو غير ذلك من الاتجاهات، ولكنهم أتوا جميعا في إطار حضارة واحدة بمختلف رواسبها لتدمير حضارة أخرى؛ هي الحضارة العربية الإسلامية.

- تكامل الأدوار بين مختلف الاتجاهات، ولما كان الدين من أهم عوامل صياغة الشعوب فقد اتخذ وسيلة لتثبيت الاستيطان.

- أنتجت الحركة الاستيطانية بعد عقود من السنين بمختلف وسائلها طبقة مدجّنة من الأهالي، ورغم قلة عددها إلا أنها أصابت المجتمع الجزائري في الصميم لا زال يعاني منها إلى الآن.

الهوامش:

(1) مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830م، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1985م، ج1، ص 85، 86.

(2) Michel habart ، histoire d'un parjure, paris, 1960, p 170 .

(3) IBID, p 173 .

(4) تولى شؤون البابوية من سنة 1829م إلى 1830م (خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830 - 1871)، ط1، مطبعة دحلب، 1992، هامش ص 72).

(5) المرجع نفسه، ص 40.

(6) المرجع نفسه، ص 30.

(7) محمد العربي الزبيري، تقديم لكتاب المرأة لحمدان خوجة، ط2، من دون ت، الجزائر، 1982، ص5.

(8) Gabriel Esquer, correspondance du duc de rovigio (1831-1833), Alger, 1920, tome 2, p 338, □

نقلا عن بقطاش، المرجع السابق، ص34.

(9) مولود قاسم، المرجع السابق، ص 20، وقد أورد نص الوثيقة الأصلي في ص 22، 23 شكل ج، د.

(10) المرجع نفسه، ص 21، 24.

(11) Grusseney Mgt, Vingt Cinq Années d'épiscopat en France et en Afrique, Alger, 1882, tome 1, p 173.

-نقلا عن بقطاش، المرجع السابق، ص 18

(12) Jean Garnier, Charles X le roi le proscrit, Paris, 1967, p 149.

نقلا عن بقطاش، المرجع السابق، ص 18.

(13) خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 20، هامش ص 37.

(14) خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 20، هامش ص 37.

(15) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ط1، م و ت، الجزائر، 1992م، ق1، ج1، ص 72.

(16) هو أحد العلماء الفرنسيين الذين كانوا مقربين لبوجو والمرافقين للجيش الفرنسي، له مؤلفات منها: "دراسات إفريقية".

(17) سيبيريان (ت 258م) إفريقي في عهده ضاهت كنيسة قرطاج روما، يعدُّه أنصاره من ضحايا العقيدة والمبدأ، حكم عليه امبراطور روما فلريان "valerien" بالإعدام، مكَّنه أنصاره من الفرار فامتنع وظلَّ في سجنه حتى أُعدم (المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي تيزي وزو (10- 22 يوليو 1973)، وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، الجزائر، 1975م، م3، ص 1325، 1326.

(18) بوجولا، دراسات إفريقية، ج1، ص 45، نقلا عن سعد الله، الحركة الوطنية، ق1، ج1، ص 73.

(19) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 74، 98.

(20) المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي ومقاومته الشعب في الميدان الروحي، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ماي، جوان، 1972، ع 8، ص 307.

(21) هو الدوق دورفيكو، سياسي وجنرال فرنسي (1774م- 1833م)، عُيِّن في سنة 1831م قائدا أعلى للجيش الفرنسية في الجزائر (محمد العربي الزبيري، هامش المرأة، ص 60).

(22) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 76- 78.

(23) حمدان خوجة، المرأة، ص 288.

(24) المصدر نفسه، ص 159- 261.

(25) خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 31.

(26) عبد المالك مرتاض، أصالة الشخصية الجزائرية، مجلة الأصالة، ع 8، ص 225، 226.

- (27) المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر، مجلة الأصالة، ع8، ص309.
- (28) حمدان خوجة، المرأة، ص274.
- (29) المصدر نفسه، ص250.
- (30) خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص31.
- (31) L'ASNIET. B, Le siècle des revolutions, Tunis, 1967, p 343 .
- (32) حمدان خوجة، المرأة، ص241- 243، أيضا أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر (الخلفيات، الأهداف، الوسائل، البدائل)، دط، مطبعة دحلب، الجزائر، 1991م، ص84، 89.
- (33) حمدان خوجة، المرأة، ص241- 243.
- (34) يونس درمونة، المغرب العربي في خطر، دار الطباعة الحديثة، 1956م، ص30، نقلا عن أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، دط، منشورات دحلب، الجزائر، 1991م، ص92.
- (35) حمدان خوجة، المرأة، ص281- 282.
- (36) المصدر نفسه، ص252- 254.
- (37) هو قائد الحملة الفرنسية على الجزائر، وُلِدَ في 1773م، وتُوفِيَ في 1846م، كان من جنرالات الإمبراطورية ثم انضم إلى لويس 18، هو الذي وقّع على وثيقة الاستسلام، وأوّل من نكث العهد الذي عقده مع الجزائريين باسم الأمة الفرنسية (مُحمّد العربي الزيّيري، هامش المرأة، ص102).
- (38) مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، دط، م و ك، الجزائر، 1983م، ص51.
- (39) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص73، 74.
- (40) هو حفيد البارون دويرتال طبيب لويس 18 وشارل 10، كان أبوه البارون دوفيلار إقطاعياً كبيراً في منطقة اللانغدوك بفرنسا (خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية، هامش ص72).
- (41) المرجع نفسه، ص44- 63.
- (42) المرجع نفسه، ص48.
- (43) الحبيب الجنحاني، حركة التبشير والحركة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19، الملتقى 7 للتعرّف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، م3، ص1060.

